

إشكالية العلم بين الموضوعية والايديولوجيا في فلسفة "بول فيرابند"

الأستاذ بوصالح حمدا
جامعة زيان عاشور – الجلفة -

المقدمة

إن التحولات الحاسمة التي شهدتها فلسفة العلم في النصف الثاني من القرن العشرين والتي جاءت استجابة للثورة العلمية التي شهدها القرن، في مجال الفيزياء النظرية على يدي ماكس بلانك (1858-1947) وأنشتاين (.

1897-1955) قد أحدثت هزة عميقة في مجمل البنية المعرفية للعلوم الطبيعية والاجتماعية، وأدت إلى أزمة زعزعت كل المبادئ والأسس النظرية والمنهجية التي قام عليها العلم الكلاسيكي ومن مظاهر هذه الأزمة، ظهور النزعة النقدية الجذرية لكل المطلقات والمقدسات و المسلمات والبدهييات الحداثية التنويرية، والشك في كل المفاهيم التي قامت عليها من مثل العقل، العلم، الحتمية، اليقين، العقلانية، وكذا هدم الثنائيات الفلسفية- الذات/ الموضوع، العلم/ اللاعلم، العقل/ العاطفة.

هذا فضلا عن ما أحدثه هذا التحول من تغيرات جذرية في ابستمولوجيا العلم المعاصر، خاصة في الثلث الأخير من القرن العشرين، الذي عرف ظهور تيارات ابستمولوجية جديدة، تعرف بتيارات ما بعد الحداثة، تميّزت باتّساع رقعة النقد ورفض العقلانية العلمية الحداثية، وإعادة النظر في المبادئ الأساسية التي تقوم عليها كالموضوعية، المنهج، الصدق، المنطق، وإعادة النظر في طبيعة العلم ذاته موضوعيته وحياده عن التأثيرات الإيديولوجية والسلطوية، وعلاقته بالنشاطات المعرفية الأخرى ودور التأثيرات السوسيولوجية و الأنسجة الثقافية في نمو المعرفة العلمية.

وسأتناول في هذه الورقة البحثية إشكالية موضوعية العلم وعلاقته بالتأثيرات الإيديولوجية، من خلال موقف الفيلسوف بول فيرابند⁽¹⁾ (1924-

1994) أحد أبرز فلاسفة العلم المعاصرين، الذين قدّموا قراءة جديدة لفلسفة العلم، اتّسمت بالطابع الثوري على كل المناهج العلمية السابقة، وعلى كل الأنماط والنظريات المعروفة في حقل العلم وفلسفته، حتى وصل الأمر بالبعض إلى نعتة بفيلسوف العلم المشاغب، و بالعدوّ اللدود للعلم، وفيلسوف

العلم الثائر وذلك لشدة ثورته على كل الأنساق الاستيمولوجية المتداولة، و لجرأة مواقفه المناهضة للعقلانية العلمية، و العلم الغربيين.

تهافت تفوق العلم وامتيازهِ عن باقي النشاطات المعرفية :

تعتبر وجهة نظر **فيرابند** حول العلم واحدة من أكثر وجهات النظر جرأة و استفزازا، يندرج تصوّره للعلم في إطار مشروعه الاستيمولوجي والسياسي الرامي إلى مناهضة العقلانية العلمية الغربية ، القائمة على مسلمة مفادها أنّ العلم الغربي هو وحده دون غيره القادر على اكتشاف الطبيعة والسيطرة عليها، وأنّه المقيّم أو المعيار الوحيد للحضارات والمعارف الأخرى غير الغربية.

ينطلق **بول فيرابند** في معرض مناقشته لموضوع العلم من تساولين رئيسيين، الأول: ما هو العلم ؟ و هل تختلف معاييرهِ و نتائجهِ عن معايير و حقول النشاطات الإنسانية الأخرى؟ و السؤال الثاني: ما هو الشيء العظيم في العلم الذي يجعل منه مفضلا و أرقى من النشاطات المعرفية الأخرى؟ هل بسبب عقلانية معاييرهِ أو بسبب نتائجهِ المهمّة؟ (2)

إنّ الإجابة عن السؤال الأول متعدّدة، فكل مدرسة من مدارس العلم تقدّم تصوّرا مختلفا عن ما هو العلم، و كيف يؤدي عمله، و يجمل **بول فيرابند** إجابته عن السؤال الأول بقوله: «أن طبيعة العلم مازالت مغلفة بحجب من الظلام، و لا يزال الموضوع قيد المناقشة، و ثمة فرصة سانحة لمعرفة ما متواضعة عن العلم سوف تنشأ ذات يوم» (3)

أمّا بالنسبة لامتياز العلم و تفوّقه عن باقي النشاطات المعرفية الإنسانية الأخرى، فإن المدافعين عن هذا الرأي يبنون موقفهم على دعمتين أساسيتين، الأولى: أن نتائج العلم مستقلة بذاتها ولا تدين بشيء لأيّ فعاليات غير علمية ، والثانية : امتلاك العلم لمنهج علمي ثابت قائم على مجموعة من القواعد الثابتة والصارمة، و يعلّق **فيرابند** بسخرية على ما هو شائع في المجتمع، إذ من النادر أن نجد شخصا يسأل و يشكك في أفضلية و تفوّق العلم على باقي المجالات، إذ تجد العلماء و فلاسفة العلم يدافعون عن العلم مثلما يتصرف المدافعون عن الكنيسة الرومانية الواحدة، فالمذهب الكنسي صحيح، و كلّ ما عاداه و ثني و بلا معنى، و كان هذا التوجّه ذات يوم كنوزا للخطابة الدينية، و قد وجدت لها الآن موطنها جديدا في العلم (4) فإذا كان هدف العلم هو تعليم الإنسان المعنى الحقيقي للحياة – على حد تعبير **رينان Renan** - فمن غير المعقول أن نجد أناسا مناهضين له (5).

إلا أنّ فيرابند يعارض هذا التوجه، و يعتبر أنّ العلم ليس كتاباً مغلقاً لا يمكن فهمه إلا بعد سنوات من التدريب، و إنما هو نظام عقلي يمكن أن يختبره و ينتقده أي شخص معني بالأمر، أما صعوبة العلم المزعومة فذلك يرجع إلى الحملة المنظّمة التي يشنّها العديد من العلماء لإدخال الرّعب في نفوسنا (6).

إن ما يجعل تفوّق العلم عن باقي المجالات المعرفية الأخرى أمراً بديهياً، مبعثه خطأ فادح متمثّل في أنّنا نفاضل بين العلم و بين غيره من المجالات على أساس معايير العلم ذاته (الموضوعية، الصدق، اليقين، المنهج العلمي)، لكن تاريخ العلم نفسه يؤكّد أنّ العلم لم يتفوّق بسبب نتائجه، ولا بسبب منهجه، فنحن نعلم ما يؤدّيه العلم، لكن ليست لدينا أدنى فكرة عمّا إذا كان في مقدور تقاليد أخرى – غير علمية - أن تؤدّي أفضل منه بكثير أم لا، ولذا يتعيّن علينا أن نبحث عن ذلك (7)

فالنّاتج التي حقّقها العلم في جميع مجالاته، لا تعطيه الأفضلية و الامتياز، ذلك لأنها تدين بشكل كبير إلى معارف غير علمية هي من نتاج معارف إنسانية قديمة، لا تنتمي إلى مضمار العلم، و المثال المحبّب لبول فيرابند في هذا الصّد هو الثورة الكوبرنيكية، فقد استقى كوبرنيك (1473-

1543) أفكاره من الفيثاغوري فيلولالوس، حيث تبنى أفكاره و دافع عنها، بعد أن خرق قواعد العقلانية السائدة و قواعد الحس المشترك، و كان فيلولالوس فيثاغوريا صوفياً مشوش الذهن، ومثلما انتفع علم الفلك من المذهب الفيثاغوري، نجد أن الميكانيكا و البصريّات تدينان كثيراً لحرفة الصّناع، و يدين الطب للقبالات و العرّافين، وبائعّي الأدوية المتجولين (8)، و عليه فإن القول بالموضوعية و حياد العلم عن التّأثيرات السوسولوجية و هم باطل. كما يرد بول فيرابند على المدافعين عن امتياز العلم عن شتى ضروب المعارف الأخرى، بحجّة امتلاك العلم لمنهج يجعل منه معرفة منظّمة يقينية صادقة، لا يشوبها أيّ شكّ، بأنّ تاريخ العلم نفسه يشهد أنّ فكرة وجود منهج علمي ثابت ينظّم عملية اكتساب المعرفة العلمية الصحيحة، لا يوجد ما يبرّره، فهناك الكثير من النظريات العلمية حقّقت تقدّماً في العلم لأنّها تجاوزت وانتهكت المناهج العلمية الثابتة والجامدة في عصرها، يقول بول فيرابند: «إن فكرة المنهج الذي ينطوي على مبادئ ثابتة مطلقة لا يعترّيتها تغيّر لانجاز مهام العلم، لتواجه صعوبات جمّة حين مواجهتها بنتائج البحث التاريخي، حيث انه لا تتوفر قاعدة واحدة مهما كان قدر المعقولية الذي تتمتع بها إلا و

كان مصيرها الإخفاق في وقت أو آخر، مما يثبت أن هذه الإخفاقات ليست حوادث عرضية، فهي ليست نتيجة لمعرفة غير وافية، وإهمال كان يمكن تحاشيه، بل على النقيض إنها مطلب ضروري لإحراز تقدم العلم» (9)

فلا وجود إذن لحجة قطعية و نهائية يمكن اعتمادها لتأييد الدور الاستثنائي للعلم، وامتنازه عن باقي المعارف الأخرى، بل ليست للعلم – على حدّ تعبير بول فيرابند – أيّ سمة تجعله أسمى أو مختلف عن السحر و الشعوذة أو التنجيم

فالعلم ليس إلا تقليد من بين التقاليد الأخرى الموجودة في المجتمع، و إذا كان النقد ينصبّ على كل التقاليد فانه عادة ما يستثني العلم، يقول بول فيرابند: « نحن – المجتمعات الغربية- الآن نستطيع أن ننتقد ما نشاء، و كيفما نشاء باستثناء العلم، فقد ذهب كروبوتكن kropotkine * على سبيل المثال إلى ضرورة هدم جميع مؤسسات وصور الاعتقاد التقليدية، إلا أنه يستثني العلم، كما ينتقد الكاتب المسرحي هنري ابسن I bsen **أهمّ إيديولوجيات القرن التاسع عشر، ما عدا العلم، و قد جعلنا ليفي ستروس LEVI STRAUSS ندرك أنّ الفكر الغربي لا يعتبر قمة الانجاز البشري الوحيد – كما كان معتقدا من قبل- إلا أنه يستثني العلم من انتسابه للإيديولوجيات (10).

إن العلم حسب فيرابند ليس نظاما معرفيا مقدّسا يستلزم الكفر بكلّ ما عداه أو خالفه، أنّه نظام عقلاني وجب أن ينمو و يزدهر وسط الأنظمة المعرفية الأخرى، و إذا كان العلم الذي ساد في القرنين السابع و الثامن عشر كان بحق أداة للتنوير و التحرّر فمن غير الملزم أنّ العلم سيظلّ دائما أداة للتحرر أو التنوير، فالعلم شأنه في ذلك شأن أيّة إيديولوجية أخرى، قد يؤدّي إلى الخراب والدمار، بل إنّ العلم اليوم أصبح يمثّل في استبداده الإيديولوجيات التي جاء أصلا ليحاربها ويخلصنا منها « فليس هناك مبرّر للجوء إلى نجاح العلم لتكميم السلوك البشري، كما أنّ الأنساق غير العلمية لا ينبغي إهمالها بحجة مخالفتها للعلم، فهو ليس دوما مكلّل بالنجاح حيث يحتل فيه الفشل مساحة غير صغيرة، كما أنه ليس هناك منهج أوحد يسلكه بغية التوصل إلى نجاحاته، فليس بين طياته ما يقضي باستبعاد الأنساق الأخرى» (11)

فالعلم وجهة نظر واحدة من وجهات نظر متعددة، وليس هو الدرب الأوحد صوب الحقيقة والواقع، فلا ينبغي لنا أن نجعل منه المستشار الأوحد الذي نلجأ إليه يقول فيرابند: « فنحن نعلم أنّ الطّبّ العشيري البدائي والطّبّ الشعبي والأشكال التقليدية للطّبّ في الصين، والتي لا تزال قريبة الصلة

برؤية الحس المشترك والإنسان و الطبيعة، لديها في الغالب وسائل أفضل للتشخيص والعلاج من الطب العلمي، كما أننا نعلم أيضا أن الأشكال البدائية للحياة قد ساهمت في حلّ مشكلات الوجود الإنساني، والتي تعتبر بعيدة المنال بالنسبة للمعالجة العقلانية»⁽¹²⁾

فإذا كان هناك اختلاف بين العلم و هذه الثقافات البديلة، فهو فرق في الدرجة فقط، كما يشيد فيراند بالأسطورة بكونها بناء مهم، يحمل همّا وجوديا تمّ من خلاله تقديم مجموعة من التصورات حول الإنسان والكون والمعرفة و القيم التي يمكن تطويرها، وأنه بالإمكان تطوير التفسيرات الأسطورية إذا ما تمّ ربطها بسياقها الزماني والمكاني وعدم تأويلها بطريقة كلاسيكية. «فالتمييز التقليدي الذي أحدثه الاستيمولوجيون بين العلم و أشباه العلم غير مبرّر بل هو مصطنع ومضرّ بتقدّم المعرفة فإذا أردنا أن نفهم الطبيعة وأن نتحكّم في بيئتنا ينبغي الاستناد إلى كلّ الأفكار والمناهج، و ليس إلى نوع معيّن فقط»⁽¹³⁾

العلم إيديولوجيا ضمن ايدولوجيات متعددة:

لقد أصبح العلم في نظر فيراند إيديولوجية خاصة قائمة على مسلّمات غير مبرّرة، و منها أن الحقيقة العلمية هي وحدها الحقيقة الثابتة، ورأي العلماء المتخصّصين هو وحده الرأى الصائب، وأنّ العلم والتكنولوجيا وحدهما يمكن أن يحلّا مشاكل الإنسان.

إن هذه المسلّمات قد تغلّغت في النسيج الثقافي للمجتمع، وكوّنت ايدولوجيا اقصائية لكلّ المعارف غير العلمية الغربية، بل إن افتراض التفوّق الملازم للعلم قد تعدّى العلم وأصبح موضوعا للإيمان الراسخ عند كلّ شخص، الأمر الذي جعل فيراند يشنّ حملة شعواء ضدّ العلم والعلماء دفاعا عن المجتمع وعن الحرية الإنسانية.

يدعو فيراند إلى مجتمع حر يقوم على تحرير الفرد من كلّ الإيديولوجيات و من كلّ الالزامات بما فيها السّلطة العلمية، سلطة العلم والعلماء التي لا يقلّ تأثيرها عن السّلطة السياسية، يقول فيراند: «علينا أن نحزّر المجتمع، و ذلك تماما كما حرّرنا أجدادنا من قوّة الخنق التي تحملها الديانة – الصّحيحة – الوحيدة»⁽¹⁴⁾

ولا يقتصر فيراند على الدّعوة إلى حماية المجتمع ضدّ العلم، بل يدعو كذلك إلى تحرير العلم من أيدي المتخصّصين، فقد أصبحت العلاقات الإنسانية في جميع صورها وأشكالها الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية موضوعا للمعالجة والدراسة العلمية كما هو مسطرّ في برامج التّعليم والصّحة.⁽¹⁵⁾

وأصبح العلماء يتدخلون في أدقّ دقائق حياة الفرد الشّخصيّة من مأكّل و ملبس و طريقة النّوم، فأضحى العلم مؤسّسة، بل وسلطة تقرض سيطرتها على المواطنين داخل المجتمع و تهدّد الحرّيّة الديمقراطيّة. إنّ المجتمع الحرّ الذي ينشده فيرابند ليس هو المجتمع الذي يحاول فرض قيمه الثقافيّة على الثقافات الأخرى المستضعفة، بل هو المجتمع الذي يكون فيه لكلّ التقاليد و الثقافات حقوق متساوية بغضّ النّظر عن تصوّر التقاليد الأخرى لها(16)

ويظهر من خلال هذا الموقف المدافع عن الحرّيّة الفردية تأثّر فيرابند بـ **جون ستيوارت ميل** في مقاله عن الحرية إذ يقول ميل: « لا تكفي حماية الفرد من طغيان الحكم، و إنما ينبغي حمايته أيضا من طغيان الرّأي العام و الشّعور السائد، و حمايته من ميل المجتمع إلى أن يفرض إرادته وأفكاره على الأفراد الذين يرفضونها و كذا إجبار الشخصيات على أن تكيف نفسها مع النّمودج الذي يعدّه المجتمع »(17)

إنّ المجتمع الحرّ الذي يدافع عنه فيرابند يجب أن تتساوى فيه التقاليد و الإيديولوجيات والعقلانيات، والعلم يجب اعتباره تقليدا كغيره من التقاليد الأخرى المتنافسة والتي تتفاوت في كفاءاتها، وفي مدى سلطتها على الفرد، ومن هذه التقاليد الحكمة الشعبيّة والأساطير القديمة والأديان والأعراف، وغيرها من الأنساق و الأعراف والممارسات الاجتماعيّة، لهذا لا يمكن أن يكون العلم حكما على التقاليد الأخرى، وأنّ المجتمع الحرّ لا يمكن أن يتأسّس عن طريق مذهب جزئي و لا على عقلانية واحدة، بل يتمّ تأسيسه على تعددية التقاليد و سيادة روح التعاون على مستوى الأمم .

من فصل الدّين عن الدّولة إلى فصل العلم عن الدّولة :

يثير فيرابند قضية بالغة الأهميّة، وهي التّوظيف الإيديولوجي للعلم، بحيث أصبح العلم دين الدّولة، ولهذا يدعو إلى فصل العلم عن السّياسة (الدّولة) كما تمّ فصل الدين عن السّياسة في العصر الحديث، فمنذ انطلاق النّهضة الأوروبيّة، دخل العلم مضمار المنافسة مع باقي الإيديولوجيات، وخاصّة الدّين الذي كان جزءا من البناء الأساسي للمجتمع، وبما أنّ المجتمع والدّولة لم يعلنّا بعد أفضلية العلم على باقي الإيديولوجيات في ذلك الحين، نرى العلم في عصرنا تبوأ نزعة و قوّة تحرّرية بفضل هيمنته على باقي الإيديولوجيات وعلى رأسها الدّين، ففسح المجال لمكان بديل وطرق جديدة للتّفكير الإنساني ولكن العلم بعد حسمه المنافسة الإيديولوجية لصالحه أضحى الإيديولوجية المقترنة دائما بالتفوّق والأفضليّة، وأصبح الجزء الأساسي في نسيج المجتمع مثلما كانت الكنيسة ذات يوم الجزء الأساسي في بناء المجتمع،

و على الرّغم من انفصال الكنيسة عن الدّولة انفصالا لا شكّ فيه، فانه لا انفصال يلوح في الأفق بين العلم و الدّولة (18).

إن مقارنة فيرابند ارتباط العلم بالدّولة بارتباط الكنيسة بالدّولة له دلالة واضحة على النّتائج الوخيمة التي تنتج عن استغلال العلم لأغراض سياسية، فالعلم ليس في منأى عن التّلاعبات والحسابات الضيّقة للسياسة، فهناك علاقة بين الفرضيات المدعّمة والسّلطة والمؤسّسات، القائمة هذا فضلا عمّا خلفه العلم والتكنولوجيا من مآسي إنسانية، فقد عانى الإنسان حربين كونيتين، وقد كان فيرابند نفسه احد من عانى ويلاتها نتيجة الإصابة التي تعرض لها في العمود الفقري إبان الحرب العالمية الثانية، والتي جعلته يمشي على عكازين طوال حياته، وقد كان لذلك اثر كبير في حياته الفكرية، هذا ناهيك عما أحدثه العلم المعاصر من نتائج لأخلاقية نتيجة تجاربه على الإنسان والبيئة، يقول فيرابند: « إن فصل العلم عن الدولة يمكن أن يكون فرصتنا الوحيدة للتغلّب على بربرية العصر العلمي - التكنولوجي » (19)

إن إضفاء الطّابع المؤسّساتي على العلم في المجتمع يتعارض مع الموقف الإنساني والحرّيّة الفردية، فالعلم يتمّ تعليمه في المؤسّسات التّعليمية (المدارس و الجامعات مثلا) بوصفه مادة دراسية إجبارية، تحدّد الدولة، يقول فيرابند: « إذا كان في إمكان الأمريكيين أن يختار اليوم الدين الذي يشاء، فانه لا يسمح له حتى إشعار آخر أن يعلم أبناؤه السّحر بدلا من العلم، فهناك فصل بين الكنيسة والدولة، لكن ليس هناك فصل بين العلم و الدولة » (20)

فالدولة في المجتمع الحرّ الذي ينشده فيرابند يجب أن تكون محايدة من الناحية الإيديولوجية، و وظيفتها أن تتنقّب بين جميع الإيديولوجيات المتنافسة في المجتمع حتى تضمن للأفراد حرّيّة الاختيار (21) فإذا كانت الكنيسة حسب فيرابند وصيّة على العلم، تستعمله لمراقبة الأفكار، فان العلم اليوم أصبح تحت وصاية الدولة تستخدمه للأغراض نفسها لذا كان لزاما للحفاظ على الحرية الفردية من فصل العلم عن الدّولة.

إن دعوة فيرابند إلى فصل العلم عن الدولة وتحرير المجتمع من سلطة العلم والعلماء، هي في الحقيقة دعوة مبنية على الموقف الإنسي، الذي التزم به في إطار مشروعه الفكري، في شقّيه الابستيمولوجي والسياسي، هذا الموقف الإنسي القائم على ضرورة تحقيق أكبر قدر من الحرّيّة الفردية والسّعادة الإنسانية، وإلغاء كافة الالتزامات التي تحدّ من تحقيق إنسانية الإنسان، ففيرابند ليس ضدّ العلم والعلماء كما قد يفهم من بعض آرائه التي تبدو غريبة وغير مألوفة، وإنما هو ضدّ التّوظيف الإيديولوجي للعلم الذي

تصبو إليه الحضارة الغربية التي جعلت من العلم الغربي مقياس التفوق، وهو الأساس الذي شكل العقلانية الغربية التي لا تؤمن بالاختلافات والتغيرات والتعددية والتجديد والبدائل المطروحة وأشكال المعرفة غير الغربية. لقد تحول العلم الغربي إلى نموذج إيديولوجي لا يكتفي بغرض دعواه فقط بل ينفي كل ما عداه من الحقائق، لذلك فإن استبداده المطلق هذا لا ينكر مقولة التغيير فحسب، لكنه ينكر أساسا احتمال كون العلم أو شيء من أشيائه قابلا للتغيير (22) فقد كان الاعتقاد ولا يزال قائما بأن العلم غربي المنشأ والتطور، فقد تصوّر رينان أنّ العلم نموذج للمعرفة ولد مع الإغريق ومرّ بفترة انتقالية ثم حلّ بأوروبا الغربية، هذا ناهيك عن بعض التصوّرات التي تربط القدرة على إنتاج المعارف النظرية والتجريبية بخصائص عرقية.

يعارض فيرابند هذا التوظيف الإيديولوجي للعلم والاستغلال غير المشروع له في إطار المشروع الثقافي الغربي، فلم تكن على الإطلاق أية منافسة عادلة بين هذا التعقيد الكامل للأفكار، وبين أساطير وأديان وتصرفات المجتمعات الغربية، فقد اختفت وتدهورت هذه الأساطير، وهذه الديانات، ليس لأنّ العلم كان أفضل، لكن لأنّ رسل العلم كانوا مظفرين وذوي عزيمة ولأتهم طمسوا بنوع أخصّ حاملِي الثقافات البديلة (23)

ولا يخفى على أحد ما قام به المستشرقون من طمس لمعالم الثقافات البديلة، و العلم لصالح الحركة الاستعمارية التي ما فتئت تتسع مجالاتها وأدواتها ووسائلها، وما يعيشه العالم اليوم في إطار سياسة العولمة وفرض النموذج الغربي لهو صورة واضحة لذلك، إن هذا التفوق الظاهر للعلم الغربي - حسب فيرابند - لم يكن بسبب ما حققه من معارف، وإنما بطمسه للثقافات الأخرى وبهذا أصبح وسيلة استبداد واستغلال، يقول فيرابند: «لا شك أنّ العلم الغربي قد لوّث معظم العالم بمرض معد حيث أن العديد من الناس قد أخذ منتجاته الذهنية، والمادية باعتبارها صحيحة وحتمية، ولكن هل كانت هذه السيادة للعلم الغربي نتيجة لحجة، كما يرى المدافعون عنه، وهل هناك خطوة للتقدم عن طريق الأسباب التي تتوافق مع العقلانية الغربية؟ هل هذا التلوّث الذي أحدثه العلم الغربي قد أدخل تحسينات على حياة هؤلاء الذين يتصلون به؟ إن الإجابة لدي بالنفي، فالحضارة الغربية، وثمة الغربية قد تم فرضها بالقوة، وليس عن طريق حجج تبين صدقها، أنها سادت لأن أسلحتها أفضل». (24)

الخاتمة :

لقد حاولنا من خلال البحث أن نسلط الضوء على إحدى الإشكاليات التي طرحتها فلسفة علم ما بعد الحداثة ، كما عبر عنها بول فيرابند ، وتوصلنا إلى جملة من النتائج نلخصها في النقاط التالية :

لقد أفضت الحركة النقدية لفلسفة علم ما بعد الحداثة إلى ضرورة مراجعة مفاهيم العقل والعقلانية والموضوعية العلمية التي سيطرت على مجمل تاريخ الفكر الإنساني عامة ، والفكر العلمي الحديث خاصة ، وأدت إلى تجاوز التصور الغربي للعلم والاستعاضة عنه بتصوير جديد يضع الثقافات والعلوم والمعارف غير الغربية في الاعتبار ، فالعلم الغربي خطاب كغيره من الخطابات أو التقاليد المعرفية الأخرى فعالمن العقلاني- على حد تعبير فرنسوا ليوتار - متجزئ إلى خطابات متعددة وانه من الإرهاب أن نستبعد أية خطابات أخرى غير خطاب العلم ، فالعلم نموذج لخطاب مفتوح ، كل عبارة فيه صالحة.

إن الانتقادات التي وجهها فيرابند للعلم ، والعقل والعقلانية كما عبرت عنها أشهر مؤلفاته **"وداعا للعقل"** و **"ضد المنهج"** و **"العلم في مجتمع حر"** ، لا ينبغي أن يفهم منها أنه ضد العلم ، والتفكير العلمي وليست دعوة إلى اللاعقلانية، بل هو ضد التوظيف الإيديولوجي للعلم الغربي، وضد العقل الغربي الذي تحول إلى عقل أداتي بفرض سيطرته وهيمنته تارة باسم الموضوعية، وتارة باسم العقلانية، وتارة باسم العولمة والنظام العالمي الجديد، فقد أصبح العقل والعلم الغربيين سلاح المجتمع العقلاني الغربي في نقد الأفكار والتصورات غير الغربية التي توصف عادة بأنها أفكار لا معقولة وميتافيزيقية ودينية محافظة ومشوهة تنتشر الخرافة بين الناس، وبهذا نصبت العقلانية العلمية الغربية نفسها عقلانية كونية عالمية، تلغي كل صور الخصوصية التاريخية والزمنية للتصورات العقلانية العلمية غير الغربية، وأصبح العلم أحد الأقنعة التي يتستر بها الغرب ويستخدمها لإرهاب الثقافات الأخرى، وذريعة للهيمنة والاستعمار.

إن النزعة النقدية التي ميزت فلسفة علم ما بعد الحداثة كان الهدف منها **أنسنة العلم**، فالعلم نشاط إنساني معقد تشاركت فيه عناصر أساسية سيكولوجية اجتماعية وتاريخية، وبالتالي تلاشت تلك الصورة التقليدية التي سادت حقبة من الزمن، والتي تنظر إلى العلم على أنه مجموعة من النظريات والقوانين العلمية الموضوعية التي يمكن التثبت منها بشكل قاطع بواسطة جملة من القواعد تشكل منهجا علميا، ولا زالت هذه النظرة تسيطر على فكر بعض الباحثين في عالمنا العربي، الذين يعتقدون أن هناك أوجه تناقض بين العلم والتفكير العلمي، وبين العقائد الدينية.

التأكيد على أهمية تاريخ العلم في فهم حقيقة العلم وآليات نمو وتطوره ذلك لأن تاريخ العلم حينما يؤرخ للعلم، هو في الوقت نفسه يؤرخ للإنسان الحقيقي ولجميع نشاطاته وأحداثه الإنسانية المتداخلة مع نشاط العلم، فهو تاريخ للإنسان و قد تداخلت فيه جميع نشاطاته الاجتماعية والسياسية والسيكولوجية، وليس تقريراً أو سجلاً زمانياً يوثق بعض خصائص الإنسان المجردة .

إن الدرس الذي يمكن أن نستفيد منه من خلال موقف فيرابند هو ضرورة التخلص من ذلك الشعور بمركزية الغرب ونزع صفة العالمية والعلمية والمطلقية عن حضارته، فالنظريات والقوانين العلمية التي تشكل العلم الحديث والمعاصرة هي في واقع الأمر نتيجة تطور تاريخي وحضاري، وثمرة تضافر ظروف فريدة في لحظة فريدة، أو في إطار براد يغم معين على حد تعبير (توماس كون)، فالعلم الغربي مجرد حلقة خاصة ضمن سلسلة طويلة من الحلقات الكثيرة التي أبدعها العقل الإنساني على مر العصور، وعليه فالغرب يجب أن يبقى غربياً، لا عالمياً، ويجب أن ندرك محليته وخصوصيته الحضارية والجغرافية وأن ننفتح عليه بطريقة نقدية إبداعية.

إذا كان فيرابند من أشهر فلاسفة العلم الغربيين المناهضين للعقلانية والعلم الغربيين، فنحن - العالم العربي - أولى بذلك، فشعوب العالم العربي، من أكثر شعوب العالم التي عانت ولا تزال تعاني من هذا التوظيف الأيديولوجي للإنساني للعلم، ولا يجب أن يفهم من هذا التخلي عن العلم وإنكار دوره في تحقيق الذات، فقد كان العلم ولا يزال هو العامل الحاسم في تشكيل العقل والواقع على حد سواء، وقد أصبحت المعرفة العلمية قيمة في حد ذاتها، ومن الأسلحة التي يمكن من خلالها أن يدافع بها الإنسان عن كيانه، ويمثل غياب العلم في واقعنا العربي المعاصر أحد أهم العقبات التي تقف دون تغيير هذا الواقع، فقد أصبح العالم العربي يعيش حالة من الأمية العلمية، ولا يعني محو الأمية العلمية هذه استيراد أحدث التقنيات الغربية والتباهي بامتلاك آخر المبتكرات الغربية، فالكثير منا لا يعرف حتى استخدامها، بل نحن في حاجة إلى عقلية علمية عربية تستوعب التحولات المعرفية والعلمية الثورية التي تمر بها هذه الحقبة التاريخية، وتذكر في آن واحد تناقضاتها واديولوجيتها القابعة خلفها.

إن التعددية المنهجية والثقافية التي تبناها فيرابند في مشروعه الأبيستمولوجي تدعونا إلى ضرورة التفكير في تكوين عقلية عربية تكون التعددية بجميع إبعادها الثقافية، والعلمية، والسياسية، والمذهبية الدينية أساسها وجوهرها، فلا مجال ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين للواحدية، ووجهة النظر الواحدة، أو المنهج الواحد أو الحزب السياسي

الواحد، أو النخبة الثقافية الواحدة، هذه الواحدة التي طبعت العقلانية العربية طيلة قرون عديدة مما ولد القهر، والتسلط، والدكتاتورية، وما رافقها من فقدان الإنسان العربي لقيمته، فلا بد أن يدرك الإنسان العربي أن جميع وجهات النظر، والمناهج، والأحزاب، والمذاهب، والنخب الثقافية المختلفة، يمكن أن تساهم في صنع وبناء مستقبلنا العلمي والثقافي والحضاري .

الهوامش والمرجعية :

(1) – فيرابند بول كارل :فيلسوف نمساوي ولد في فيينا عام 1924 ، بعد اجتيازه المرحلة الثانوية جند بالجيش الألماني بضفة إجبارية وترقى إلى رتبة ضابط ، أصيب في الحرب العالمية الثانية بإصابة بالغة على مستوى العمود الفقري أدت إلى تعرضه للشلل الجزئي وعجزه عن الحركة الطبيعية طوال حياته ، وقد حصل على شهادة الدكتوراه في الفيزياء عام 1951 تحت إشراف فيكتور كرافت بعدها سافر إلى انكلترا ليدرس تحت إشراف فيلسوف العلم كارل بوبر حيث تبني أفكاره لفترة ليصبح من أشد المعارضين له وفي عام 1955 سافر إلى أمريكا ليعين أستاذا لفلسفة العلوم بجامعة كاليفورنيا ليبقي متجولا بين جامعات كل من انكلترا وألمانيا وإيطاليا توفي سنة 1994 من أهم مؤلفاته : كتاب " صد المنهج " الذي نشره عام 1975 والذي نال شهرة واسعة ، " العلم في مجتمع حر عام " نشره سنة 1978 ، وداعا للعقل " سنة 1987 ، " قتل الوقت سيرة ذاتية لبول فيرابند " عام 1996 والذي لخص مسيرته الذاتية .

أوراق فلسفية .

(2) فيرابند بول : العلم في مجتمع حر ، ترجمة السيد نفاذي ، تقديم سمير حنا صادق ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة 2000 ، ص 91.

(3) نفس المصدر ، ص 92

(4) نفس المصدر ، ص 92

(5) E. Renan : l'avenir de la science. (calmman-levy , paris 1890)

(6)- Feyrabend p contre la méthode esquisse dune théorie : Baudoui jurdant et Agnes anarchiste de la connaissance , tra : 347 éditions de seuil paris 1979 , p

(7) – فيرابند : العلم في مجتمع حر ، مصدر سابق ، ص 121

(8) – نفس المصدر ، 119

(9) - Feyrabend p 20: contre la méthode , op cit

*كروبتكن : (1842 1921) ، عالم جغرافيا ، وكاتب سياسي روسي ، ارتبط اسمه بمذهب الفوضوية ، وضع نظرية في الشيوعية تقوم على إلغاء الملكية الخاصة وتملك الثورات ، من مؤلفاته "مذكرات ثوري" .

** هنري يوهان ايسن : (1828 1906) كاتب ومسرحي نرويجي يعرف بأبو المسرح الحديث تميزت مسرحياته بالطابع النقدي للأوضاع الاجتماعية التي يعيشها المجتمع الأوروبي ، من أشهر مؤلفاته : "الأشباح" ، "مسرحية عدو الشعب" ، "البط المتمرد"

ibid p 340 – (10).

(11) – عوض عادل : الاستمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، الاسكندرية 2004 ط1 ، ص108

(12) – فيرابند بول : العلم في مجتمع حر ، مصدر سابق ، ص 79

Feyrabend p (13) – op cit p339: contre la méthode .

(14) – شالمرز آلان: نظريات العلم ، ترجمة الحسين سحبان وفؤاد الصفا ، دار توبقال للنشر ، المغرب ط1 ، 1991 ، ص143 .

Feyrabend p (15) - op cit p339: contre la méthode .

(16) – فيرابند بول : ثلاث محاورات في المعرفة ، ترجمة محمد أحمد السيد ، منشأة المعارف، الاسكندرية ، 1997 ، ص 27 .

(17) - جون استوارت ميل : عن الحرية ، ترجمة عبد الكريم أحمد ، مراجعة محمد أنيس ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة 2000 ص 122

(18) فيرابند : العلم في مجتمع حر ، مصدر سابق ، ص 92- 93 .

Feyrabend p (19)- op cit p 338: contre la méthode .

ibid p 337 - (20).

(21) الان شالمرز: نظريات العلم ، مرجع سابق ص 143.

(22) - مطاع صفدي : نقد العقل الغربي ، الحداثة وما بعد الحداثة ، مركز انماء القومي ، بيروت 1990 ، ص 45 .

(23) - فيرابند : العلم في مجتمع حر ، مصدر سابق ، ص 117.

Feyrabend p : Adieu la reison , , tra : Baudoui jurdant , (24) - éditions de seuil, paris 1979 , p339.